طب نفسى

عادت إلى مصر.. فهل هى مجنونة؟

د. محمد شعلان

طبيبة شابة تطلب بشيء من الدعابة أن تتأكد من قواها العقلية . فقد قال الجميع عنها إنها مجنونة ، لأنها تركت بإرادتها عملها فى البلد العربى الذى ذهبت إليه ، وذلك بعد أربعة شهور من وصولها ، وعادت إلى مصر ، ومن جانبها فهى فعلت ذلك لأنها لم تستطع ان تتركه فى أقل من هذه المدة نظرا للإجراءات التى كادت تقترب فى تعقيدها من عتق الرقبة .. فقد اتخذت قرارها خلال أيام من وصولها . اتخذته وسط هذه الضغوط من إخوانها سواء أهل البلد أو المصريون العاملون هناك ، بل أسرتها فى القاهرة .

فالجميع متفقون على الهدف من الوجود . يقيسون عليه العقل من الجنون . فالهدف هو ان يعمل الإنسان ليجمع المال لكيلا يعمل بعد ذلك . وبهذا القياس فقد كانوا جميعا يتعجبون لقرارها هذا . فهاهى ذى تتلق نظير ست ساعات من العمل اليومى أجرا كل شهر . يفوق ماتتقاضاه فى مصر نظير عمل عامين . علاوة على أن السكن متوافر واللوازم الأساسية للحياة فى المتناول . وكلها مستوردة بالطبع . حتى الهواء مستورد . إذ أن الهواء المحلى ساخن ومترب . ولم يعد صالحا لسكان المنطقة الأصليين ولا للوافدين عليهم الذين لايلبثون أن يتعودوا عليه لمدة أيام حتى يعجزوا عن الحياة بدونه بعد ذلك . كأن الجميع صاروا سجناء لغلاف من الهواء البارد .

كانت قبل أن تذهب فعلا تعانى من كثرة العمل بيما هى مطالبة بالاستمرار فى دراساتها العليا . وكانت على مستوى آخر لها احتياجات بيولوجية آخذة فى الإلحاح مع مرور السنين . وهى أن تكون أسرة للإنجاب بعيدا عن أسرة الأصل التى نشأت فيها . وكان هذا يتطلب أن يكون لها سكن . والسكن يحتاج إلى أموال . وهى أموال تتزايد عاما عن عام . ولاعلاقة لحجمها أو سرعة زيادتها بحجم دخلها المصرى أو سرعة زيادته . كانا عالمين منفصلين : أى عالم الاستهلاك والشراء والامتلاك من جانب . وعالم الإنتاج والعمل من جانب آخر . كانت تعمل كثيرا أو تنتج كثيرا . ولكن طرفى المعادلة لم تكن قادرة على تلبية حاجاتها الاستهلاكية .

ولذا لاح لها هذا الحل الذى يتسابق عليه الجميع . وكانت لها ميزة فى السباق . فقد كانت متفوقة وتمكنت من الحصول على عمل فى موقع تتوافر فيه الخبرة والعلم . الخبرة لأنه موقع يتوافد عليه الفقراء وتنفق عليه الدولة . والعلم لأن العلماء الذى اكتسبوا علمهم أصلا من مثل هذه المواقع يستمرون على صلة به . وليس ذلك للاستزادة من العلم ولكن لأن المنصب العام ينعكس على الدخل الخاص . فالمنصب العام يجعلهم على صلة بالطلاب والشباب والمرضى الذين هم بالتالى على صلة بالجمهور . الذى هو بالتالى على صلة بالصفوة التى تتمكن من الحصول على خدماته الخاصة . ومن هذا الامتياز كان الطلب عليها عاليا .

وفضلت على العديد من زملائها وزميلاتها بل فضلت على أكثر من مائتى زميل تمكنوا من السفر والإقامة ولكن لم يتمكنوا من الحصول على عمل . ولابد أن نذكر فضل جنسها . فالنساء فى هذه البلاد مازلن يتناهين الخجل من الكشف لدى الأطباء الرجال . وإذا ماتوافرت طبيبة مثلهن فلاشك أن الإقبال عليها سوف يشتد . كان لها أن تفخر وأن تشعر بقيمتها . كان المجال مفتوحا أمامها لكى تكون مرغوبة ومقدرة ولاتتعرض للإهانات التى يتعرض لها الأجير الزائد على الحاجة .. فذهبت .

كان أملها أن تستمر فى اكتساب الخبرة والعلم فالحاجة إليها موجودة والمرضى متوافرون والإمكانيات تسمح باستيراد الكتب والمكتبات الأنيقة . وهى لم تكن تريد إلا فرصة للقراءة لتعود للقيام بأبحاثها بعد ماتعود . وإذا توافر الجو العلمى بالمناقشة واللقاءات مع الزملاء والزميلات فهذا أفضل . والأفضل أيضا أن يكون من هؤلاء معارف أو أقارب . وكان ذلك موجودا فعلا كل هذا متوافر . من الجنون ألا تذهب . إذن ذهبت !

ولم تهنأ باللقاء مع الأصدقاء والأقارب . فقد بدأ تنفيذ العقد فور وصولها . وبدأ عملها اليومى من السابعة حتى الواحدة . كان عملا مشينا . إذ كان سهلا لايثير فيها التحدى أو التفكير . كما أنها لم تكتسب منه خبرة أو علما . كان العمل مطلوبا لأن الخدمة المعروضة للمستهلك مشروطة بأن يقدمها طبيب . بل طبيب متخصص . فالذى يملك الأجر يستطيع أن يستشير أعظم المتخصصين فى مشكلة بسيطة . بينما الفقير قد يذهب إلى السحرة والمشعوذين أو حتى لايذهب إلى أحد فى مواجهة مشكلة عويصة . فلا مانع إذن أن تقوم من فى خبرة صاحبتنا بعمل يقل بكثير عن قدراتها . مادام يدفع لها الأجر العالى . فكيف تعترض ؟

وبقى لها اليوم الطويل بعد الواحدة . تستطيع أن تفعل به ماتشاء . أن تنام أو تقرأ أو تأكل وتشرب . ولكنها تكتشف أن المشيئة ذاتها غائبة . فهى لم تعد تشاء أن تفعل كل هذا . فقد شبعت نوما وأكلا وشربا . أما القراءة فهى تحتاج إلى ذهن متحرك ونشط . والذهن ينشط فى مواجهة المشاكل أو فى مواجهة الإثارة والحث من الاحتكاك بالأذهان الأخرى . أى فى الجو العلمى والثقافى المناسب . وفى بعض الحالات ينشط بفعل تكوينه الذاتى . والجو العلمى والثقافى لم يكن مهيأ . فالجميع يعمل ليكسب لكنه لايعمل بعد ذلك . والتطبيق يترجم إلى يوم العمل العادى . عمل فى كل صباح بأقل مكسب .

ثم لاعمل فى المساء . إذ ليست هناك مشكلة يفكرون فيها . جميع المشاكل تحل بالمال والحلول تستورد جاهزة . فلماذا عناء التفكير ؟ بل إن البلد كله يطبق هذه الفلسفة . فقد عملوا فى البداية ولكنهم وجدوا المكسب قد أتاهم من تحت الأرض . فلم يعد هناك حافز للعمل . وخاصة أن المال يستطيع أن يجلب العاملين الذين يقومون به . بل إن المال صار يجلب المفكرين والمثقفين والكتاب والمتكلمين . لاداعى ان يقوم بذلك أحد . مادام يمكن استجار من يقوم به . ولكن الذى يقوم به يجد بعد وقت أنه كالببغاء أو القرد . فهو لايفكر من موقع الالتزام الجاد أو المسئولية . ولكن يفكر لكى يرضى صاحب المال ويزين له بلاطه بالفكر .

إذا كان المال زينة للحياة الدنيا فما يشتريه المال أيضا زينة وليست له قيمة جادة فى حد ذاته . لم تجد إثارة ولاحماسة من تفكير المفكرين ولاعلم العلماء ولاثقافة المثقفين . كانت كلها بضائع زائفة للزينة فقط . ولكن ليست للاستخدام المفيد . كما لم تجد إثارة للفكر خلال تحدى مواجهة المشاكل . فقد كان كل شىء يسيراً .

ومع ذلك فهى لم تكف عن التفكير . فهى بطبيعة تكوينها تمثل ذلك النمط الثالث من المفكرين . فهى تفكر حتى فى غياب الجو الفكرى وفى غياب تحدى المشاكل . لم تفكر فى المشاكل العلمية اليومية . فهذه كانت أيسر من أن تحتاج إلى تفكيرها . ولم تفكر فى المشاكل العلمية العريضة التى قد تشكل موضوعا للبحث العلمى . فهذه لم تكن مطروحة . ولكنها فكرت فى الوضع الشامل . فى معنى وجودها فى هذا المكان .

لقد نظرت أمامها قليلا . وشاهدت من هم فى موقع أساتذتها . واكتشفت الفرق . مالها هم ليسوا أفضل حالا بكثير . إذ مازالوا يتقاضون المرتب دون ملكية لغير ماسأل منه . وعلميا كان الفرق واضحا . إن نفس هؤلاء العلماء والمعلمين ممن جذبهم المال وحضروا وغابوا عن موطنهم - لا أربعين عاما بل أربعين يوما . نسوا ربهم وتحولوا لعبادة العجل الذهبى . نسوا العالم وصدئت أذهانهم . ونسوا الهدف السامى وظنوا أنه مجرد عملية تحويل النحاس إلى ذهب فتشبثوا بالذهب وفقدوا الروح وصاروا كالآلات .. وكالبالونات المحشوة . استيراد المواد العلمية لم يكف . فكان استيراد العلماء أنفسهم . ولم يكف أيضا . بل تحول العلماء من ذهب إلى نحاس مقابل تحول النحاس الذى فى جيوبهم إلى ذهب . وهاهى ذى تطمح للعلم وتجده كالسراب . مثله مثل الماء . فلما ارتضت بما دونه وهو المال وجدته هو الآخر كالسراب . نفط أسود يتبخر وورق أخضر يتحلل .

فكرت فى ذلك المستقبل منذ الأيام الأولى من وصولها . ورأت مابعد السراب . وانزعجت وحاولت بمعاونة إخوانها أن تطمئن نفسها وتصبر نفسها . إنها لاتنوى الاستيطان وخاصة به استيطان بلا ضمانات . ويتوقف على إرادة صاحب العمل لا على إرادتها . وتقبلت أن يكون بقاؤها لفترة محدودة : عاما أو بضعة أعوام . تجمع خلالها قيمة ماتحتاج إليه لتقتنى عش زوجية تشارك به الزوج الذى تريده أو شقة تمارس فيها عملها الخاص . ولكنها اكتشفت فى نفسها ذلك التمرد المضاد لتزدها على المال والزينة . وهو الإغراء الشيطانى بأن تسلك الطريق المريح . أن تنعم بالثمرة المحرمة على بقية بنى وطنها . أن تنعم بالشقة الميسرة والسيارة الأمريكية المكيفة الهواء والسلع الاستهلاكية المستوردة والفاخرة .

وأن تنسى عناء ركوب المواصلات المصرية بل مغامرة السير على الأقدام فى شوارع مصر المزدحمة . وتنسى آلام المرضى الفقراء الذين يرضون بالإمكانيات المحدودة التى تتوافر لهم فى تلك المؤسسات التى تنفق عليها دولتهم اللاهثة على الحفاظ على الحد الأدنى من الخدمات . لقد ضبطت نفسها وهى تكاد تنسى الآلام لتنعم بالراحة . والراحة ثمرة نبعت من نفط أسود جرت به الأرض على أصحابها من تحتهم . هى ثمرة محرمة . فى ظاهرها تبدو كأنها تعد بالمزيد من النعيم . ولكن فى باطنها تنذر بالعذاب الأليم . ثمرة أكل منها أصحابها فلما فاض دعوا الغير أن يأكل من فتاتها . ولم يبقى بعد هؤلاء أو هؤلاء بعقبات الأكل منها .

ولكن صاحبتنا أدركت بحسها الفطرى . أن وراء الثمرة المحرمة المغرية عواقب عليا . فأقلقها الأمر . وحرمت نفسها من المتاع الدنيوى قبل أن تعتاد عليه فتفقد بذلك متاع الآخرة .

بل إن المتاع ذاته فيما يبدو فقد طعمه . فقد أدركت أن أهل البلد الأصليين . الذين طال بهم الاستمتاع . لم يعودوا يجدون المتعة فيه . الشباب منهم يذهب إلى أوربا ليكمل متعته . والكبار منهم يذهبون إلى .. مصر . وتعجبت كيف يذهبون إلى مصر وهى عائدة منها . ولكنهم يذهبون ومعهم من المال مايكشف جنات مصر التى كانت خافية عليها . بل إن فى اكتشافهم لهذه الجنات وتكالبهم عليها أحد العوامل التى جعلتها نادرة وغير متوافرة لها . نعم فالغلاء فى مصر الذى حرمها من إمكانية الحصول على حاجاتها الاستهلاكية يرجع بعضه إلى تلك الأموال السائلة التى تأتى من فائض المال النفطى .

والآن .. هل هى مجنونة ؟ إن الدعابة فى التحليل النفسى لها مدلول جاد . وهى فى هذه الحالة تعكس قلقا حقيقيا عاشته صاحبتنا وهى تفكر بغير مايفكر الآخرون . فهاهى ذى وسط معابد العجول الذهبية تفكر فى الموجود الأزلى . ووسط التمرغ فى المتعة تفكر فى آلام المعذبين والمحرومين .

وينطبق عليها قول على بن أبى طالب رضى الله عنه . إن الزاهدين فى الدنيا تبكى قلوبهم وإن ضحكوا . ويشتد حزنهم وإن فرحوا . ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتبطوا بما رزقوا . فلا عجب أن يشار تفكيرها القوم حرفا فيقولوا عنها كما قيل عن كل من خالف الاعتقاد السائد فى عصره : إنك مجنونة . وضغط الجماعة لايستهان به . والفرد وحده أمام الإجماع أضعف من أن يقاوم . فيخضع أو ينهار أو يتكيف . ولكنه فى بعض الأحيان يكون واثقا من رؤيته . وفى هذه الحالات قد يخفظه من ذلك الخضوع أو الانهيار أو التكيف . أن يجد ولو شخصا واحدا بجانبه . يرى مايرى ويؤكد له صدق رؤيته .

إنها فى عودتها إلى مصر وجدت ذلك . فصحيح أن الذين بقوا فى مصر أغلبهم لم ير ماراًت . إذ أن هؤلاء ينتظرون دورهم للسفر إلى حيث السراب ويتعجبون كيف عادت . والبعض الآخر عيل صبره من الانتظار ومكث متقبلا واقعه فلم يعد يرى أن فيما رأت جديدا يلفت النظر . ولكن مقابل ذلك وجدت أن لها زميلا فعل مافعلت وعاد بعد أربعين يوما من سفره . بل وجدت زميلا آخر ألغى سفره بعد أن حصل على عقد للعمل . بل وجدت من يرفض فكرة السفر أصلا . ولم يكن ذلك من موقع تعال على المادة فقد كانوا جميعا من ذوى الدخل المحدود . كما لم يكن بدافع من التعلق الطفلى بالأسرة والأحباب . فقد كانوا ممن حققوا قدرا من الاستقلال وكونوا أسرهم .. وهم ليسوا ممن ينطبق عليهم قول الصوفى (شقيق البلخى) : « إذا كان العالم طامعا وللمال جامعا فبمن يقتدى الجاهل ؟ وإذا كان الفقير المشهور بالفقر راغبا فى الدنيا والنعم ملابسها ومناكحها فبمن يقتدى الراغب حتى يخرج من رغبته ؟ . وإذا كان الراعى هو الذئب فمن يرعى الغنم ؟!! » .

كان وراء موقفهم وجدان يبحث عن فكر يفلسفه . وجدان يقول إن أبناء مصر مسئولون عن مصر . فإذا كان بها خطأ أو ضعف فهم مسئولون . وإذا كانت بها ميزة فهم مسئولون . إنهم مسئولون عن كون مصر ماهى عليه . ومسئولون عما سوف تكون عليه بعد ذلك : فى السراء والضراء . إنهم يقولون إن مصر سوف تبنى نفسها بسواعدها . بل إن مصر بنيان شامخ ومفخرة . وهى لاتتسول أيادى تبنيها بل هى مصدر تلك الأيادى التى تمتد لتبنى لغيرها .

بل إن أبناء مصر العربية مسئولون عن الأمة العربية . ومن هذا الواقع فهم يرفضون أن يكونوا مجرد أياد تبحث عن عمل ترتزق منه . بل يرفضون أن يساهموا فى اضمحلال هذه الأمة . باستيراد حضارة زائفة . فإن عمل مصر فى الأمة العربية يجب ألا يكون مجرد عمالة تملأ وظائف . ولكنه عمل هادف منظم يسعى إلى بناء الأمة العربية جمعاء . وألا تكون العمالة المصرية مجرد سوق للأيادى بل جزءا من خطة تشترك فيها مصر بنصيبها من موقع الشريك الند . وهى لذلك فى حاجة إلى تنظيم وتخطيط يمكنها من هذا الدور . فيكون التعاقد مع مصر ككل ويكون الإنتاج للأمة العربية التى تساهم بدورها فى حماية القائمين عليه . فإذا كانت مصر تنفق من قوتها لتعد هذه العمالة التى تنتشر فى أرجاء الأمة . فعلى بقية هذه الأمة أن تساهم فى حماية وإعداد تلك العمالة .. فتدعم بأموالها مدارس مصر وجامعاتها علاوة على المؤسسات التى توفر الخبرة التعليمية المكملة من مصانع ومزارع ومستشفيات . وعلى الأمة أيضا أن تساهم فى حماية هذه العمالة بأن توفر لها الطمأنينة والاستقرار فتساهم فى تأمينهم اجتماعيا وتوفير المواطنة الكريمة حيثما وجدت . بما فى ذلك مصر نفسها .

والمواطنة الكريمة فى مصر لاتتوافر إلا بوجود درجة من عدالة التوزيع للثروة تجعل الكرامة فى المواطنة لافى كم الثروة التى يحوزها المواطن . والعدالة فى مصر لايمكن أن تنفصل عن العدالة بين مصر وغيرها . إذ مادامت مصر تعيش وسط مجتمعات تتمايز على بعضها بكم الثراء . فإنها سوف تعكس فى داخلها ذلك التمايز . بينما إذا ماتحققت العدالة بين مصر وغيرها فسوف تحقق مصر العدالة الاجتماعية بداخلها . فالعدالة الاجتماعية قضية لاتتجزأ إلى داخل وخارج . ولكى تتحقق داخل الأمة الواحدة فعليها أن تتحقق بين الأمم بعضها وبعض .

والتفاوت بين الأمم بدوره له مستويات مرتبط بعضها ببعض . فالتفاوت بين أبناء الأمة العربية انعكاس للتفاوت بين تلك الأمة وغيرها . وبالتحديد بينها وبين عالم الشمال الصناعى (أمريكا وأوربا وروسيا) . إلا أن الأمة العربية المفككة حاليا تعجز عن تحقيق العدالة بينها وبين عالم الشمال الصناعى . وهو العجز الذى يعكس عجز عناصرها فى تحقيق العدالة بينهم . والذى يعكس هو الآخر العجز الداخلى فى كل عنصر من عناصر المجتمع العربى عن تحقيق العدالة داخل المجتمع الواحد .

الجانبان مرتبطان : فإن العدالة بين المجتمعات لن تتحقق إلا بتحقيق العدالة داخل كل مجتمع . وعلى العكس أيضا . فإن العدالة داخل كل مجتمع لن تتحقق إلا بتحقيق العدالة بين المجتمعات .

ولذا فعلينا أن نهتم بقضايا التنمية والعدالة الداخلية فى مجتمعنا . فى ذات الوقت الذى نناضل فيه من أجل تحقيق العدالة بين مجتمعنا وغيره . وأن نبدأ بالدائرة الأقرب فى نطاق الأمة العربية . ثم الأبعد فى العالم الثالث . ثم الأبعد فى العالم كله . كطرف يمثل العالم العربى والعالم الثالث فى مواجهة عالم الشمال الصناعى . □

الشركة المصرية لمعدات الصيد

إحدى شركات وزارة الزراعة

تبرز دورها الرائد فى مجال تحقيق سياسة الأمن الغذائى وتوضح : أغراض الشركة

انشئت الشركة عام ١٩٦٤ لتحقيق الأغراض التالية

١ – توفير وتصنيع وتشغيل جميع أدوات ومعدات الصيد والمعدات البحرية ولوازمها وتطهير البحيرات والبواغيز .

٢ – إنشاء وبناء الوحدات البحرية ووحدات الصيد للقطاعين العام والخاص والجمعيات التعاونية لصائدى الأسماك .

٣ – إنشاء الثلاجات الثابتة والمتحركة .

٤ – المساهمة فى الشركات المحلية والأجنبية التى تزاول نشاط الصيد وتصنيع الأسماك .

٥ – الحصول على التوكيلات التجارية من الشركات والهيئات الأجنبية وإقامة محطات الصيانة اللازمة لمنتجاتها .

فروع الشركة :

بور سعيد – دمياط – كفر الشيخ – المنزلة – السويس – أسوان . وجار فتح فروع أخرى

رأس المال : ٨٠٦ آلاف جنيه

حجم الإنتاج خلال ١٠ سنوات

٢٤ مليون جنيه . خص الجمعيات التعاونية لصائدى الأسماك ٧٠٪ منها . والباقى لشركات قطاع الصيد .

حجم القروض المقدمة من الشركة للجمعيات خلال نفس الفترة :

خمسة ملايين جنيه .

رصيد مديونيات الجمعية التعاونية للشركة

٧٩٠٤٥٨ جنيها أى ٩٥٪ من رأس مال الشركة نتيجة البيع بالأجل .

حجم المخزون السلعى . ٣ ملايين جنيه للوحدات العاملة فى الصيد . وتتضمن جميع أنواع معدات الصيد وقطع غيارها .

المشروعات المنفذة

١ – مشروع الفرق الميكانيكى بمدينة السويس حمولة ٦٠٠ طن . يبدأ إنتاجه اعتبارا من نهاية عام ١٩٨١ ويتكلف ١٠ ملايين جنيه . ويجرى حاليا التركيبات المدنية والميكانيكية للمشروع .

٢ – تطهير بحيرات ملاحة بور فؤاد – البرلس – قارون .

مشروعات تحت التنفيذ

(أ) مشروع صناعة قوارب الصيد من الفيبر جلاس .

(ب) مشروع ثلاجات ثابتة بمدينتى السويس والاسكندرية لخدمة منتجات الثروة المائية .

(ج) مصانع ثلج .

(د) تطهير بحيرات بوغاز دمياط والرطمة والصفارة بمحافظة دمياط .

(هـ) مشروع الورش المتقدمة فى جميع مواقع الانتاج .

الفائض السنوى :

تحقق الشركة أرباحا سنوية منذ نشأتها وتسدد ضرائب الأرباح التجارية والصناعية بصفة منتظمة .

الصعوبات التى تواجه الجمعيات التعاونية لصائدى الأسماك فى نشاطها :

(أ) عدم توافر السيولة النقدية اللازمة من الجهات المختصة للحصول على السلع ومعدات الصيد بطريقة البيع بالأجل .

(ب) تعدد الجهات المشرفة على نشاط الوحدات العاملة فى مجال الصيد .

(ج) دخول نوعيات من السلع والبضائع عن طريق المجالس السلعية التى تتولى إصدار تراخيص استيراد لا يرغب فيها الصياد بحكم خبرته ولا تتلاءم مع احتياجاته . وتشكل هذه البضائع عبئا ماليا نتيجة لأنظمة الاستيراد القائمة .

الحلول المقترحة من الشركة لدعم نشاط الجمعيات التعاونية لصائدى الأسماك والشركات العاملة فى مجال الثروة المائية :

١ – زيادة رأس مال الشركة المصرية لمعدات الصيد . الشركة الوطنية الرائدة فى مجال الثروة المائية إلى ثلاثة ملايين جنيه لتوفير السيولة النقدية اللازمة لتمويل احتياجات القطاع .

٢ – مساهمة البنك الوطنى للتنمية فى كافة العمليات المالية الخاصة بالجمعيات التعاونية لصائدى الأسماك تدعيما لتلك الجمعيات .

٣ – إنشاء لجنة استيرادية خاصة بجهات القطاع تمثل فيها الجمعيات التعاونية لصائدى الأسماك ووزارة الزراعة والجهات الأخرى المختصة لتحديد الاحتياجات السلعية وفقا لما تحتاج إليه هذه الجمعيات .